علي إبراهيم .. زعيم النهضة الطبية الحديثة

د. سعيد عبده

وضئيل من أساة الحي لم

يعني باللحم وبالشحم إختزانا

ضامر في سمرة تحسبه

نضر صحراء أرتدى الشمس دهانا

أو طبيبا آيبا من طيبة

ولم تزل تندي يداه زعفرانا

تنكر الأرض عليه جسمه

وإسمه أعظم منها دورانا

أحمد شوقي

توفي علي إبراهيم في سنة١٩٤٧ ، عن سبعة وستين عامًا – أو هكذا قيل – وعن ولدين وبنت، وبيت في جاردن سيتي وخمسة عشر فدانًا، و١٠٠٠ سهم في بنك مصر، ومجموعة قيمة معدومة النظير من التحف والسجاجيد، وبحر من دموع تلاميذه ومرضاه، وكلية طب مصرية مائة في

المائة من غرس يديه، وسجل حافل بمئات من آيات المجد العصامي، كتبه بهمة نفسه، وأنامل راحتيه، وعرق جبينه، في حوالي نصف قرن من الزمان.

كان علي إبراهيم يقول إنه ولد في سنة ١٨٨٠، وعلى هذا الحساب بلغ الستين في سنة ١٩٤٠، ولكني لا أدري كيف أوفق بين هذا المولد وبين ما كان يروى عنه من وعيه وعي الصبي لضرب الإسكندرية في سنة ١٨٨٢!!

ولا أدري كيف أوفق بين هذا المولد وحصوله على الشهادة الإبتدائية سنة ١٨٩٢ – أي في الثانية عشرة من عمره – في وقت كان التلميذ لا يدخل المدرسة فيه إلا والصقر يقف على عذبات شاربيه!!

ولا أدري كيف أوفق بين هذا المولد وحساسيته المرهفة في أواخر أيامه من ناحية عمره، ولقائه إياي وإنصرافه عني بوجه متجهم، عندما قلت له مداعبًا في الإحتفال بعيد ميلاده الستين:

«ستين سنة إزاي يا ألفة فصل أمحوتب ؟

يا مداوي توت عنخ م الحصوة وذو القرنين!!

ستين سنة إزاي... دنا قربت ع الخمسين

ون كنت خمسين أنا «معاليك» تكون كام؟ سن

فين جدول الضرب؟ فين مسك الدفاتر فين

دا سجل مجدك لوحده ينقرأ قرايه في إثنين وسبعين سنة وبلاش أقول ثمانين!!»

أكبر ظني أن الأبدال والأعلال جري عمدًا على تاريخ ميلاده، فقلب السبعة ثمانية، وجعل التاريخ ١٨٨٠ بدلا من ١٨٧٠، التي يمكن أن تستقيم بها الأمور، كما يمكن أن نفسر بها كيف أن هذا الجسد الضامر النحيل لا يعيش غير سبعة وستين عامًا، وهو متحدر من أصلاب أبوين مات أحدهما عن ٨٢ سنة، ومات الآخر عن ٩٢ سنة.

لقد رأيت في صباي علي إبراهيم يقف على فراش مريض، يشبهه في الجسد سمرة وضمورًا وقلة، وكان مصابًا بخراج في الكبد في وقت كان هذا الخراج فيه بابًا من أبواب الآخرة لا يؤوب منه الذاهبون، وكان الأطباء قد نصحوه أن يسافر إلى بلده ليقضي نحبه هناك، فيقول له ضاحكًا من عينه التي كانت تقطر عذوبة لمرضاه: «لا تبتئس بإبني ولا تسمع لما يقولون... إن مثلك ومثلي لا يموتون إلا شيوخًا أو بضرب الرصاص!» وقد صدقت نبوءته في هذا المريض كما كانت تصدق على الدوام، فأنفجر الخراج في الرئة، ونفذ قيحه إلى الفم، على وعثاء الطريق، وعاش المريض حتى بكي على قبر علي إبراهيم!

كان علي إبراهيم في بداية حياته الطبية سنة ١٩٠١ طبيبًا مصريًا فقيرًا من مدرسة طبية منحلة، أضطر أن يعيد دراسته وهو طبيب حتى يقوي على طراد عصر، كانت نفس المواهب المصرية فيه توأد عمدًا ، وكان نفوذ الطب الأجنبي يطغي فيه على الطب المصري حتى يخنقه أو

يكاد... وأنتصر على هذه الظروف جميعًا، وعاش حتى طب لملوك وأمراء ووزراء وزعماء، وأحصي ما أجراه من جراحات في عياداته الخاصة بما يزيد على ٣٥٠٠٠جراحة غير ما أجراه منها في المستشفيات الحكومية، وهو يفوق أضعاف هذه الآلاف، وأستطاع أن يحظى بثلاثة عشر وسامًا من بلاد أجنبية متعددة، وأن ينال – دون تقدم لإمتحان – أرقى ثلاثة مؤهلات فخرية من كبرى الدوائر الطبية في مصر والعالم، وأن يرقي سلالم المجد بمواهبه الشخصية، وبعصا مصرية صميمة، وبخطوات عبقرية جبارة – من طبيب أوبئة، إلى مدير مستشفى إقليمي، إلى رئيس للبعثة الطبية المصرية في حرب البلقان، إلى مساعد جراح بمستشفى قصر العيني، إلى جراح به، إلى أستاذ للجراحة فيه، إلى مدير له، إلى عميد لكلية الطب إلى رئيس أو عضو عامل في حوالي عشرين جمعية أو معهد تسهم كلها في إيقاظ الوعي القومي أو الطبي أو الإقتصادي في البلاد، إلى صديق شخصي لمئات من أكابر الجراحين في العالم ، إلى وزير للصحة، إلى مدير للجامعة التي خرج من أرحامها سنة ١٩٠١ بأجازة علمية تافهة، طالما قادت في ذلك العهد كثيرًا من زملاء علي إبراهيم إلى القبر في الكفن الرخيص.

نعم إن الحظ طالما سطع نجمه في حياة علي إبراهيم، وطالما أضاء له السفح فصعد على هداه... لقد خدمته النهضة المصرية في سنة ١٩١٩، والجهود التي بذلتها لتقويض دعائم النفوذ الأجنبي، كما خدمه إنتحار ناظر مدرسة الطب الإنجليزي في سنة ١٩٢٩، كما تلقى خدمات كثيرة من هذا النوع من نجمه المشرق اللماع، سنرى بعض آثارها هنا وهناك في تاريخه الطويل... ولكن ما أكثر الذين يلمع الحظ في حياتهم من الضعفاء،

فيعشيهم ضوءه لا يقودهم، ويتركهم وراءه حيث كانوا يتساقطون حيرة وحسرة.

الإنسان الطبيب

ركب علي إبراهيم في مستهل حياته الطبية الحمار والقارب وغاص في وحول الريف، ومشي على قدميه تحت شمس الصعيد وعطش وجاع، وخاض وباء الكوليرا سنة ١٩٠٢ وأنتدب في سنة ١٩٠٤ وهو مدير لمستشفى بني سويف ليكافح وباء الحمى الفحمية في طوخ. وبين مشاهد البؤس في عياداته الخاصة يوم كان دخله منها لا يتجاوز ثمانين قرشًا في الشهر، ومشاهد النعيم فيها يوم جاوز دخله آلاف الجنيهات، أدرك علي إبراهيم كنه الآلام البشرية ولم تكن غريبة عليه، و قدر مرارة الثمار التي يزرعها المرض في بيوت الفقراء، فكان – قبل أن يكون طبيبًا يتكسب – إنسانًا على الدوام.

ففي الوقت الذي تقاضى فيه من السلطان حسين كامل ألفا من الجنيهات الذهبية عن جراحة أجراها له، لم يتقاض شيئًا من موظف أرسل له خمسة جنيهات في خطاب، وقال له أن أبنته ووحيدته مريضة، وأنها في حاجة إلى جراحة ليس لها إلا هو، وأنه غير قادر على أن يأجره بأكثر من هذا المبلغ التافه، فإن قبله فبها، وإلا فليرده مشكورًا، ولكل مريض رب لا ينساه... وقد رده إليه فعلًا علي إبراهيم، ولكن بعد أن أجري الجراحة المطلوبة للفتاة، وتكفل لها بأجر المستشفى وثمن الدواء.

واكتظ المستشفى الإسرائيلي الذي كان علي إبراهيم جراحه يومًا ما، بقصاده، وتجاور في غرفة واحدة منه ثري من أسرة الشواربي المعروفة، وقاض من قضاة المحاكم المصرية، وأستأصل علي إبراهيم في نفس الوقت لكل منهما كلية مريضة، وعندما برئا وأوشكا على الخروج، طلب من الشواربي خمسمائة جنيه، وطلب من القاضي الذي بدا عليه الذعر من فداحة الأتعاب، أن يمر به في عيادته، فأستعد القاضي لهذا اللقاء بمائتي جنيه معظمها قروض، وبسط يده بما فيها قائلًا: «هذا كل ما إستطعت جمعه والأمر لك».

وسأله علي إبراهيم: «كم مرتبك»؟

فقال: «خمسة وأربعون جنيها...».

قال: «إذن تدفع خمسة وأربعين، وتعيش هذا الشهر محتميًا، فالحمية لمثلك من ذوي البدانة تفيد!!».

إن حياة علي إبراهيم الطبيب والإنسان والإداري كانت مسرحًا لكثير من أمثال هذه المفارقات.

وعندما قال شوقي في تكريمه:

«يـد إبـراهيم لـو جئـت لهـا بـذبيح الطـير عـاد الطـيرانا»
«لم تخـط للنـاس يومـا كفنـا إنمـا خاطـت بقـاء و كيـانا»

ضحك علي إبراهيم ضحكته الخرساء وقال: آه لو عرف شوقي أن

قتلاي في القطر كان يمكن أن يملؤوا مقابر المجاورين!!

وقلت لشوقي ذلك فإختلجت عينه كما كانت تختلج عندما يمرح وقال:

– لقد نسى أن يقول لك: لو اجتمع من أحياهم في صعيد واحد لكان منهم عاصمة جديدة للنيل!!

ولما توسلت إليه يوماً أن يجري لي جراحة في المخ تنقذني من عذاب كافر طويل قال لي ببساطة... إنني لم أجر هذه الجراحة في حياتي قط، ولا أريد أن تكون أول قتلاي في هذا المجال!

فخره بأبيه الفلاح

وفي الوقت الذي بلغ فيه التفاخر بالأنساب والأحساب أشده وزراعة النخل الطويل على قبور الآباء المغمورين، كان على إبراهيم لا يفتأ يفخر بأصله المتواضع... بأبيه الحاج إبراهيم عطا الفلاح، وبأمه السيدة مبروكة خفاجي الإسكندرانية، وبأخواته من أمه، وإخوته من أبيه، وكلهم فلاح وابن فلاح، لا يضيق يوماً بواحد منهم، ولا يتنكر لواحد، ولا يحاول وهو واقف على ربوة المجد أن يتحلل من فضل البرقع المقصب عليه، وفضل الزعبوط الفضفاض..

كانت صورة أمه تعلو مكتبه لآخر أيام حياته، وكانت المرة الوحيدة التي إبتذل فيها دموعه يوم وفاتها، وقد جعل مستشفاه الخاص في شارع

الصنافيري، بعد أن إنتقل منه إلى المستشفى الإسرائيلي، مضيفة لإستقبال من يفد عليه من أقاربه هؤلاء، وأوصى أولاده على سرير الموت ألا يأخذوا مليماً من غلة الأرض التي تركها لهم في الريف..

وقال لي الأستاذ الدكتور عبد الله الكاتب –الخليفة الحالي لعلي إبراهيم على عمادة الطب– أن هذه الناحية من حياة على إبراهيم كانت تفضح أكثر من أي شيء عصاميته الفذة وشخصيته القوية، وأنه ما أحترمه قط أكثر مما أحترمه يوم أرسل له– وهو يعمل نائباً له في قسم الجراحة بقصر العيشي – فلاحاً ومعه هذه الرسالة: هذا زوج أختي فليكن له من رعايتك نصيب».

وكان على إبراهيم في إدارته يرق أحياناً حتى يستحيل إلى أب، ويقسو أحياناً حتى يستحيل إلى طاغية، ويقدم حتى يظن أقدامه حماقة، وما هو إلا إيمان الواثق من ثبات الأرض تحت قدميه... وبحجم حتى يخال أحجامه جبناً، وأكثره إنحناء للعاصفة حتى تمر وتفوت، وكل هذه التصرفات المتناقضة كانت تترجم من معاصريه ومرءوسيه بطرق متعددة، تختلف بإختلاف عقليات وأهواء المترجمين، ولكن ما من شك أن الوازع الأكبر لها كان ضخامة آماله للطب المصري والأطباء المصريين، وحرصه على الوصول إلى أهدافه من أيسر طريق مهما تعرج وطال، ولو تكلف لها شراسة التمر أحياناً، أو نعومة الثعبان.

دروس من المحن

إن المحن التي مرت عليه طوال حياته علمته الكثير ونبوغه نفسه أعتقد أن قسطاً كبيراً منه كان تعويض النفس الكبيرة عن طفولة لم يكن نصيبها من السعادة بالنصيب الكبير.

لقد عاش على إبراهيم وهو طفل مع والدته بالإسكندرية، وكانت على غير وفاق مع أبيه منذ حملت به، ومع جدته لأمه وكانت كفيفة البصر. وكان لديها زلعة» تختزن فيها ما كانت تدخر من ذهب، فكانت الأم إذا إحتاجت إلى مال تآمرت مع الصبي على أن يأخذا من الزلعة مقداراً من القطع الذهبية، ويضعان في مكانها بعددها وحجمها قطعاً فضية، حتى لا ينفضح الأمر بالعد والإحصاء، فإذا تيسر الحال إستبدلا من الفضة الذهب، وكأن الذي كان ما كان!

وعندما نال الإبتدائية في سنة ١٨٩٢، وكانت من أكبر المؤهلات لوظائف الحكومة في تلك الأيام، أراد أبوه أن يستحوذ عليه، وأن يلحقه بوظيفة في البريد، وجاء لياخذه من أمه قسراً، فحمل على إبراهيم ملابسه، ومقداراً من المال من أمه –ولعله من الزلعة!– وقفز من سطح البيت إلى أسطح الجيران فراراً من أبيه. وفي القاهرة دخل المدرسة الخديوية بوساطة بعض أصحاب الجاه من زملاء المدرسة الإبتدائية في رأس التين.

وأراد كتشنر –سردار الجيش المصري– يومئذ أن يختار ضباطاً للجيش في حملة السودان من تلاميذ المدارس الثانوية في القاهرة، فمر بها

واحدة واحدة، وعرض طلابها جميعاً، ليختار أقواهم جسداً، وأفرعهم طولًا، وأشدهم قدرة على الكفاح... فلما عرض طلاب الخديوية أخذ على إبراهيم يشب على أمشاط قدميه، ليلفت إليه نظر السردار، الذي ضحك ضحكة العارف بما وراء هذا الطول المصطنع، وهذا الجسد الضامر النحيل!!

لقد عاصر على إبراهيم وهو طفل ثورة عرابي على طغيان الدخلاء، وضرب الأسطول الإنجليزي للثغر الأعزل بالقنابل، وهاجر مع أمه من الإسكندرية في جنح الليل هرباً من النيران الماحقة، والقذائف المدمرة، والفوضى التي إجتاحت المدينة الثائرة من هذا الزلزال السياسي القاسم العنيف.

وعاصر وهو شاب لؤم الإحتلال الإنجليزي وهو يقتلع نبت الحرية من ضفاف النيل، ويصبغ باللون الأحمر كل معالم الحضارة المصرية الخضراء كما عاصر جهاد مصطفى كامل ومُحَمَّد فريد ضد السرطان المتغلغل بقسوة في أحشاء البلاد.

ورأى في تلك الأيام وهو يعمل مديراً لمستشفى بني سويف في سنة ١٩٠٤ تحت إشراف مفتش الصحة الإنجليزي... رأى مسرح الجراحة بالمستشفى يستعمل طريقاً مفتوحاً لموردي اللحوم والخضراوات... فثار على هذا الوضع، وسد الباب الموصل إلى المطبخ، وهيأ لموردي الطعام طريقاً مستقلًا إليه، ينقذ مسرح العمليات من الأوساخ والأقدار. فعد المفتش الإنجليزي هذا الإجراء إعتداء على سلطانه، وعنف كل منهما على

صاحبه، ودفع على إبراهيم ثمن هذا العنف نفياً إلى مستشفى أسوان!!

وعاصر وهو كهل تمرد مصر على أغلالها الحديدية سنة ١٩١٩ ، كما عاصر محن السياسة الحزبية وأعاصيرها على مصر فيما تلا ذلك من السنين حتى مات، وكاد يحرق أصابعه على جمرها عندما رشح نفسه حزبياً لمجلس النواب الأول في سنة١٩٢٤ نائباً عن دائرة عابدين، لولا أن الجمر لسعه في الوقت المناسب، فأجفل، وإبتعد في الحال.

وفي هذه المدرسة ذات الموج المتلاطم تعلم على إبراهيم أن السباحة مع التماسيح تغرير، وأن الإحتيال على الأمور خليق أن ينيله من غاياته ما لا ينيله العنف وضرب الروس في الجدران ... تعلم كيف ينحني للعواصف، وكيف يحاور ويداور، وكيف يقدم ويحجم، وكيف يظهر على المسرح عندما يثمر الظهور، وكيف يختفي عندما يحس بوادر السخط على وجوه المتفرجين..

عندما أراد أن يسافر إلى السودان ليعالج الزعيم الديني الكبير السيد على الميرغني، وكان كبار الأطباء الإنجليز في السودان قد أشفقوا من مغبة هذا العلاج، تعلق به أولاده وهم صغار ليسافروا معه إلى السودان... فلم يعنفهم وقال لهم ببساطة: هلموا معي إلى السودان... وصحبهم إلى جروبي، وملأ أفواههم حلوى، وقال هذا هو السودان!! ثم أعادهم إلى البيت فرحين، وتركهم نياماً يحلمون بحلاوة السودان، وذهب فإستقل القطار!!

وكانت هذه طريقته في مواجهة المشاكل...

مستشفى المنيل

ولما عجز أسلافه مديرو مستشفى القصر العيني الإنجليز أكثر من مرة عن إغراء السلطات بإنشاء مستشفى المنيل الجديد (فؤاد الأول الجامعي سابقًا) ووضع هذا المشروع على الرف، وقيل يومئذ أن الملك السابق فؤاد كان يطمع في أرض المستشفى ليقيم عليها قصرًا لولي عهده فاروق، لم يكد علي إبراهيم يتولى عمادة الطب سنة ١٩٢٩ حتى راح يجاهد جهاده الخفي، ويحتال ويجامل، ويحرك الأحجار بلطف، حتى أتيح له أن يحصل على الاعتمادات اللازمة لبناء المستشفى، وإصلاح الكلية كذلك، جزءًا جزءًا، وإعتمادًا وراء إعتماد، وكلما فرغ من بناء، بدأ في آخر ووضع السلطات أمام الأمر الواقع، ولم تستطع حتى أزمة سنة ١٩٣٠ الطاحنة أن تحول بينه وبين الحصول على أكثر من مليون من الجنيهات لإنشاء ألفي سرير في هذا المستشفى الجديد.

لقد كان يقضي حاجة كل وزير صاحب نفوذ في الكلية بأسرع من البرق، ولكن بعد أن يكون قد نال منه للكلية مزية أو حصل لها على إعتماد.

ومن المتفق عليه أن عبقرية علي إبراهيم ونجمه المتلألئ على الدوام، وأنفه الذي كان يشم العواصف والنسمات بحساسية البارومتر الدقيق، يعود إليها أكثر الفضل في تقويض نفوذ الطب الأجنبي الذي سيطر بعد

الإحتلال الإنجليزي على هذه البلاد، وإنتشال الطب المصري من وهدة الذل والهوان التي كان يتردى فيها على أيدي أطباء غرباء، من كل بقاع الأرض، لا يعلم إلا الله من أين جاءوا، ولا كيف تعلموا، ولا بأي كفاية جمعوا ما جمعوا من كنوز.

منافسته للأطباء الأجانب

عندما نقل علي إبراهيم مديرًا لمستشفى أسيوط سنة١٩٠٤ وجد الأطباء الأجانب يحتلون مسقط الضوء، ويحتكرون الطب في أسيوط، لهم وحدهم علاج السادة، وللأطباء المصريين علاج الخدم، لهم على المائدة ما لذ وطاب، ولزملائهم المصريين النفاية والفتات... ولبث علي إبراهيم فترة يرقب الموقف، ويكسب من عيادته ثمانين قرشًا فلا يتململ، حتى إذا سافر هؤلاء الأطباء في الصيف أنتهز الفرصة السانحة وشمر عن ساعديه، ولكن أحدًا من كبار المرضى لم يأت، فإذا أتي فإنما ليستشير، ويؤجل الجراحة المطلوبة حتى يعود فلان أو علان، وكان اليأس خليقًا أن يجرفه ولكنه صمد، وكانت هناك يومنذ بعثة أجنبية تبحث عن الآثار في أسيوط، فمرض رئيسها بالتيفود فتطوع علي إبراهيم لعلاجه حتى شفاه، وبدأ البندول يتحرك نحوه ببطء، وأخذت الظروف تواتيه، فلم يلبث غير قليل حتى نافس الأطباء الأجانب على ثقة المرضى المصريين، ثم بزهم، ولم يترك أسيوط في سنة ١٩١١، إلا وهو يكيل لهم بنفس مكيالهم القديم: يأكل، ويلقي إليهم بالفتات!!

وتكررت المأساة بالقاهرة بعد أن نقل إليها مساعد جراح بمستشفى

قصر العيني، وكان قبوله لهذا النقل مجازفة يقامر فيها بدخل وصل إلى ٥٠٠ جنيه شهريًا في أسيوط على مستقبل في القاهرة غامض مجهول...

ولكن أية مجازفة لم يكن يقدم عليها علي إبراهيم؟

لقد كان خوف الأطباء المصريين من الأطباء الأجانب في القاهرة آخذًا بالنواصي والرقاب، وظل سنتين فعلًا يمص إبهامه في عيادته الأولى بباب الشعرية ويعد الطير في السماء، ولكن سرعان ما واتته الظروف وألتمع نجمه، فأعلنت الحرب الأولى، ونزح إلى بلادهم كثير من الأطباء الإنجليز، فخلا له الجو، وراح يصعد السلم على عصاه المصرية، بخطوات الفرعون الثاوي في جسده النحيل... ولم يصعد وحده فقد جر معه إلى القمة سمعة الطب المصري، وكثيرًا من أساطينه الحاضرين...

وما هو إلا قليل حتى كانت الثورة المصرية تقطف جناها الأول في سنة ١٩٢٤، فتمكن البلابل الدوح مكانًا على أغصانه بين البوم والغربان، ويصبح علي إبراهيم أستاذًا للجراحة في كلية الطب بعد أن كان كرسي الأستاذية وقفا على الأجانب، مستحيل المنال على المصريين. ومنذ ذلك اليوم أخذ الدم المصري يملأ شرايين كلية الطب على يد علي إبراهيم.

مصري صميم

في قامة علي إبراهيم القصيرة، وجسده الضامر، ولونه الأسفع، وجبينه العريض، وعيونه الواسعة وشفاهه الغلاظ، شيء ما كان يجعل الناظر إليه – دون أن يكون شاعرًا – يتوهمه كما توهمه شوقي: طبيبًا آيبًا

من طيبة، يداه لا تزالان نديتين بالزعفران.

ولكن أشد ما كان يوحي بإنحداره رأسًا من أصلاب الكهان في طيبة ومنفيس تلك الأنامل العبقرية التي كانت ترفو الحياة بمهارة فنان، وهذه الشخصية المبهمة الجبارة التي قهرت الأعاصير والزوابع بخبرة ملاح من ملاحي الأساطير.

لقد حطمت هذه الأعاصير ما حطمت، وأغرقت ما أغرقت، ثم إنداحت في النهاية عن مصر المتحررة من أسارها الطويل، ومجموعة من العصاميين المصريين طفوا فوق العباب المتلاطم، بقوة السواعد وعمق الوطنية، ونور الإلهام... وكان من أبرزهم دون شك الدكتور علي إبراهيم.